أسرار حياة بلاد العرب السعيدة

LA VITA SEGRETA DELL'ARABIA FELICE

تأليف الأب الايطالي سلفاتوري آبونتي

للأستاذ محمد عبدالله العمودي

[بقية المنشور في العدد ٣٠٩]

انتهى ما أردنا نقله من كتاب السنيور آبونتي ص ٢٤ وما بعدها . والأستاذ الريحاني صاحب « ملوك العرب » له كلمة بصدد القات قال في ص ٩١ من المجلد الأول : « إن في القات على ما يظهر خاصية الحشيش الأولى ، أي الكيف ، وشيئاً من خاصة الأفيون المخدرة ، وبعض ما في السكرات مما ينبه الفكر . وبكلمة أخرى هو يطرب النفس ، ويخدر الحواس ، ويشحذ الذهن . وأهل اليمن يعتقدون كذلك بأنه يبعث فيهم النشاط ويقويهم على السهر والعمل في الليل . وقد تحققت بنفسي أنه يؤرق ويحدث في المعدة يبوسة وانقباضاً وفي الفم جفافاً وعفوصة مثل البلوط ، فيطلب صاحبه الماء كثيراً . ولكني لم أحس بشيء من الكيف ، أي خفة النفس ، ولم ينبه الفكر إلى غير الأوهام التي تستحوذ على الناس فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة . وقد يكون هذا وهما لأن تأثيره فيمن يستعمله مرة غير تأثيره فيمن يستعملونه دائماً ويفضلونه على خبز يومهم ؛ وكل الناس في اليمن : من رجال ونساء وأولاد وأغنياء وفقراء يأكلون القات . . .

« ولا شك أن القات مضر بالصحة والنسل : فهو يفقد المرء شهوة الأكل ، ويفسد أسباب الهضم ، ويحدث أمثال الأفيون ، شللاً في مجاري البول ، ولا يقوى الباه بل يضعفه ! » .

ومواطنونا اليمانيون لهم نصائد من عيون الشعر في هذا الحشيش . وقد كان الإمام يحيى من الذين (يخزنون) وله حماسة غريبة في الدفاع عنه . يحدثنا الريحاني في كتابه ص ١٦٥ أن رفيقه في الرحلة ثار وهما القات ، فانبرى له الإمام يحيى وعارضه بقصيدة من فيض الخاطر فذكر عشراً من مزايا القات منها :

قالوا يزيل جلاء الضعف منه ذهاب
وللشعور صباغ زهدي يذاب
أحسن بتمر مليح له المذاب رضاب !

يا ما أحيلاه ظلما تحتفي به الأحباب
وللنفوس سراح وللنشاط انجذاب
ويشحذ الفكر حتى يخاف منه الذهاب
ويطرد النوم عمن له الجليس كتاب

وفي هجاء القات يقول شاعر عدني :

عزمت على ترك التناول للقات صيانة عرضي أن يضيع وأوقاتي
وقد كنت للقات المضر مدافعاً زماناً طويلاً رافعاً فيه أصواتي
فلما تبينت المضرة وانجلت حقيقته بادرته بالمناواة
فقيمة شاري القات في أهل سوقه
كقيمة ما يدفعه في ثمن القات

* * *

ثم يغادر السنيور آبونتي مدينة تعز فينطلق في رحاب سهل الخا ، فتبدو له الروح الخضراء ، والبساتين الواسعة ، فلا تحرك عواطفه ، ولا تثير اهتمامه . إذ كانت نفسه تواقة متحفزة لرؤية الخا المدينة العالية ، مدينة البن الرفيع . فتصدمه الحقيقة ، ويقف أمام الأمر الواقع ؛ وإذا به يرى هذه المدينة التي يدين لها العالم قد أخفى عليها الدهر فقضى على مجدها وسلب شهرتها ، فأصبحت يباباً وأطلالاً خراباً ، انفض عنها سكانها فلم تبق بها إلا أكواخ حقيرة ، وقوارب ملقاة على الشاطئ ، يأوي إليها السكان . . . أما مجدها فقد ألقى رحاله على الحديدة وعدن ، فأصبحتا قبلة العالم في ارتقاب البن اليمني !

وخلص من الخا واندفع في تهامة حتى بلغ الحديدة — ميناء اليمن — فمكث بها أياماً . وبعد ذلك تابع مسيره ووجهته عاصمة يمن ؛ وكان المؤلف في أثناء سيره يعجب من هذه الجبال الشجراء ، وتلك الوديان التي تتدفق مياها ونباتاً . فقد كانت من أعظم المرقمات عن نفسه من وعثاء السفر . . . وساءته جداً حالة السكان وما هم عليه من شظف الحياة والبؤس الصارخ في جميع المرافق . كما أن هذه الأكواخ الحقيرة والعشش المهدمة التي تسيء إلى روعة هذه المناظر الطبيعية تبعدها من بلاد العرب السعيدة ، وتجعلها جزءاً من أفريقيا (ص ٥٤) .

ودخل صنعاء — مقر الملوك السيارة — فأطلق لخياله العنان ووصفها بما هي خليقة به : « هذه قصور شامخة تصافح السحاب ، وهذه القباب تتألق ناصعة في رائعة النهار ، وهذه منائرها ناحرة جوف الفضاء فيرتد عنها الطرف . . . هذه صنعاء المدينة العجيبة ،

مدينة الخرافة والأساطير . أليست صورة صادقة من ألف ليلة وليلة ؟ » ص ٦٢ .

ويقف السيور آبونتى على ناصية شارع من شوارع صنعاء فيرى بطرفه على الأقوام التى تسيل بها عاصمة اليمن ، فتحتدم فى نفسه صور وأحاسيس ، وتتحرك فيه الشاعرية ، فيبرز لنا وصف صورة حية ناطقة كأنا نحسها ونشاهدها . قال (ص٦٢) :

« ... ها هم أولاء يمرون سراعاً ممتطين صهوات خيولهم المطهمة ومن ورائهم الحشم ، متدثرين بالثياب البيضاء ، وعلى أكتافهم تسيل العصائب من حمراء وخضراء . وها هن أولاء النساء يسرن محجبات ؛ وهؤلاء هم البدو وقد تهدلت شعورهم الكثة الرهيبة على الأكتاف ، وانكشفت صدورهم المسيلة عليها مادر[1] الجلود . ثم هؤلاء ذوو المناصب وأهل المقامات يحف بهم الإجلال ، وعلى رؤوسهم العمائم البيض ، يتبعهم بعض الخدم حاملين الرُّشب البراقة ... ثم ها هم أولاء رجال القبائل ، وقد لفحتهم الشمس فبدت ألوانهم زيتونية ، مسلحين بالجنابى المعقوفة المزمنة فى خواصرهم بسيور من الجلد ... وها هم أولاء العبرانيون فى قاماتهم الضامرة وقد استشزرت غدائرهم من الأصداغ تمييزاً لهم ... وذه هى الجمال تمشى وئيداً ، وتلك الأغنام تمثل الفوضى ، وقد سالت بها الشوارع ... »

« ثم يا للعجب من هذه العبارات المذهلة ! متى شيّدت ؟ أبالأمس ؟ أم من آلاف السنين ؟ ! »

« إنه ليحق لليمنيين أن يفخروا بهذه العاصمة الفتانة ، وليس عليهم بغريب أن يسموها : «عرش اليمن» و « أم الدنيا » . ألم يؤسسها قحطان أبو يعرب العظيم الذى أخذ منه العرب اسمهم ولغتهم ؟ »

ويخرج المؤلف الإيطالى من هذه الصور الشائقة إلى ما هو أبدع منها وأغرب فقد حدثنا عن ظهور الإمام وجلوسه على عرش التبابعة ... وعن كنوزه التى تذكرنا بكنوز ملكة سبأ . فقد تحدث السائح فى ص ٧٦ عن مخابىء الإمام يحيى فى جوف الأرض وأحشاء الجبال . تلك المخابىء التى تفيض ذهباً وفضة ، والتى يقوم على حراستها رجال مخلصون !

وأبدع ما فى هذا الكتاب ، وما يهم العالم العربى الاطلاع عليه : هى شخصية الإمام يحيى تلك الشخصية العجيبة التى تناولها المؤلف فى صفحات عديدة من كتابه . فيهمنا جداً أن نجلو هذه الشذرات ، ونطرح ما لا يليق نشره ، لأن الإمام شخصية تجره يحوطها الغموض ، ويجعلها كثير من الناس وهو إلى كل هذا ملك يمثل نوعاً من الحكم المطلق ما زالت آثاره فى أقاص بعيدة من الأرض . قال المؤلف فى ص ٩٠ وما بعدها :

« الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ، المتوكل على الله ، وأمير المؤمنين شخصية من تلك الشخصيات المهمة المدهشة التى تعيش على وجه الأرض . هو رجل وعالم ... فهو رئيس الحكومة اليمنية التى تعيش ضمن حدودها ، وهو إلى ذلك عالم دينى كبير ، وزعيم لمذهب يعد أتباعه من أشد المتحمسين والمتطرفين هو واحد من أولئك الحكام أهل النفوذ المطلق ، والحكم الذى لا يقابل إلا بالتسليم . يقرُّ الزيود بأنه رئيسهم الدينى والمدنى ، فهم يطيعونه طاعة عمياء ، ويحترمونه الاحترام العميق . ويدفعون له المغارم الثقيلة ؛ وإشارة منه كافية لإشعال حرب . ويفعلون هذا ، لأن الله أراد ذلك : « إذ فوض إليه أن يحكم بلادهم ، ويتسلط على أرواحهم » . فشؤون الدولة اليمنية جميعها فى قبضة يده ويجتلى بصره ؛ وإذا كان له وزراء فإنهم صوريون يخضعون لأوامره ويخلصون له الإخلاص التام ، ولا ينفذون أمراً من الأمور إلا بعد عرضه على أنظاره وموافقته عليه . ومن المسلم به أن هذا النظام من الحكم المطلق سيكلف السياسة اليمنية متاعب خطيرة ...

« إن الإمام يحيى شخصية مقدسة لدى كثير من اليمنيين ؛ تفد إليه من أقصى « بلاد الرحل » جماعات كثيرة من البدو ، يدقون القاع ، ويقطعون شاسع البقاع ، وقد برحت بهم الأمراض وعجز أطباؤهم عن شفائهم ، فلم يبق إلا دواء الإمام ، وكرامة الإمام ، فتهل هذه الوفود على صنعاء ، وتشخص نحو « المقام » فيمر الإمام يحيى يده على رؤوسهم وأكتافهم فيزول الشر ، وتحل العافية كما كان يفعل فى انكلترا وفرنسا منذ قرون مضت : « Le Roi te touche, Dieu te guérit »

« يعتقد العالم الأوربى أن الإمام يحيى شخصية غامضة ذات أسرار عجيبة ولكن هذه نظرية خاطئة نحن مسؤولون عنها ، فالإمام يحيى يختلف جد الاختلاف عن أئمة اليمن السابقين ذوى العجائب والغرائب !

كان أولئك الأئمة ، فى وقت من الأوقات ، يعيشون فى أبراج من العاج بعيدة عن أنظار الجمهور ؛ فى وحشة صامتة ؛ وهذه

(١) المادرج مفردة : وهى « الجاكتة » وتعرف هناك بهذا الاسم لما فيها من الاتساع على البدن .

الخرافة وهم من أعماق التاريخ القديم[1] ؛ ذلك أن ملوك سبأ كما تقول الخرافة، لا يستطيعون أن يغادروا قصورهم الفخمة مبترعوا لانظار الجمهور فيقذفهم هذا بالحجارة !

ووالد الإمام الحالى قد حافظ على هذه العادة العجيبة، وذلك بعكس الإمام يحيى الذى كثيراً ما يتصل بشعبه، ويميل إلى الظهور فى المجتمعات

هناك فى فصل الصيف، فى ساحة من ساحات « القام » وتحت شجرة عظيمة وارفة الظلال يتربع الإمام يحيى وحوله ثلة من الجند، فيستمع إلى شكاوى الناس، فينصف المظلوم، ويأخذ الحق من القوى !

وقد تفد إليه من أقصى بلاد الشرق : من أرض سبأ جماعات من البدو يرجون إنصافاً، فيهدفون على القام فينحرون الذبائح على الأعتاب جرياً على عادات قديمة

الإمام يحيى رجل عالم ومثقف، يملك مكتبة واسعة زاخرة بشتى أنواع المخطوطات العربية القيمة ؛ وهو ميال على وجه أخص إلى علم الفلك وعلم السحر ؛ كما أنه مغرم جداً بمسائل التجارة وإجادة التقريض وإنشاد القصيد !

يلبس من الثياب الأبيض . وهو ذو وجه أسمر تحوطه لحية ناصعة البياض وعينين سوداوين جميلتين جذابتين . تشع منهما دلائل الذكاء والفطنة والحذر : وهو اليوم فى الخامسة والستين »

هذه بلاد اليمن وعاهلها مصورة بقلم السفير آيونتى صاحب « أسرار الحياة فى اليمن » أما نصيب هذه البلاد من التقدم وحظها من الحضارة فالأمر مشكل وعزين ، فهذه البلاد التى لها ماض مجيد تعيش فى القرن العشرين عيشة عجيبة بعيدة عن أنظار العالم ؛ بعيدة عن الحياة التى تحيى اليوم بحرارة فى أعراق الأمم ؛ منابذة مكاناً قصياً ظانة أن الحياة فى الوحدة ؛ وما درت أنها تعد نفسها لأن تكون لقمة سائغة لكلاب الاستعمار !

إن أبسط مظاهر الحضارة الحديثة ما زالت اليمن تتنكر لها، وتتحرج من تتبع آثارها . فالسيارة، وقد عرفها سكان المريخ ! ما زال ينظر إليها فى اليمن نظرة ريبة وامتعاض . حدثنا المؤلف فى ص ٩٣ أن سيارة أهديت إلى الإمام أراد تجربتها إلى أحد المساجد فما ظهرت لدى باب القام حتى التف خلق كثير لرؤية « عمل الشيطان » وما كاد الإمام يظهر ليعتليها حتى انسل من بين الجمهور أحد أنجال الإمام يتبعه جماعة من المتصلبة فى الدين ووقف أمام والده فى رباطة جأش، وعيناه تقدحان بالشرر وصاح قائلاً : وحتى أنت يا إمام الزيدية تجرؤ على اعتلاء هذه الآلة الجهنمية ؟ ؟

ولكن الإمام رده رداً لطيفاً وأخذ طريقه نحو المسجد على قدميه !

نموذج من البناء اليمنى

وتوجد فى اليمن كلها محطة راديو ؛ وعدة كهرباء ؛ يأخذان موضعهما من « مقام » الإمام فقط ؛ يحدثنا السفير آيونتى فى ص ٩٢ عنهما فيقول :

« هناك فى زاوية قصوى من حديقة القام توجد بناية ضخمة عليها محطة راديو وهى الأداة الوحيدة التى تصل اليمن بالعالم الخارجى

« يمر أمامها رجال القبائل فيحولون أنظارهم عنها من دون أن يفهموا شيئاً عن أسباب تأسيسها ! وإذا جن المساء تألقت الأنوار على مقام الإمام فيأخذهم العجب ؛ ويتألمون لهذا الحدث الجديد ؛ ولكنهم يتمتمون فى سرهم اعتقاداً أن هذا من عمل « الجن » الذين يهيمن عليهم « المتوكل على الله » أيضاً ...

وأخيراً يأتى دور النفوذ الإيطالى فى بلاد اليمن ، فقد لمسنا أنفاس الاستعمار تمشى فى صفحات عديدة من هذا الكتاب . ولم يستطع الكاتب الإيطالى أن يضبط نفسه ويكبح قلمه ؛ فهو يقول لنا فى صراحة متناهية : إنهم يعدون أنفسهم للاستفادة من أية فرصة سياسية قانونية قد تحين ، فيتهيئون لها لجعل نفوذهم ملموساً فى اليمن ؛ وهو فى أثناء هذا يشيد بأعمال إيطاليا فى اليمن وما أسدته إليها من الخدمات الجلى ؛ فهناك مستشفى لهم فى صنعاء على مقربة من قصر الإمام ؛ وجميع ما يحوى قصر الإمام من أثاث

(١) هذه النسبة لم يقلها المؤلف وحده بل جاءت من طريق أساطير التاريخ الأخرق الذى عاش ذيل البلاد فى كلامه عن « العربية السعيدة »

ومحطات راديو ، وعدد كهرباء ، وسيارات ، ومصاعد للقصور كلها من عمل ... « الطليان » بل وهناك فى صنعاء شارع يسمى شارع الطليان !

هذه « المكارم » الإيطالية ستؤتى أكلها ولو بعد حين ... ومكائد الاستعمار كثيرة منها ما يأتى عن طريق الشركات ، وبذل الامتيازات ، وغير ذلك ؛ والسادة الإيطاليون اليوم فى بلاد اليمن لهم وجود محسوس ؛ ومشاريعهم هناك كثيرة ، أهمها أن لهم اليوم مستشفى فى صنعاء وأربعة أطباء : اثنان فى صنعاء وواحد فى الحديدة وآخر فى تعز . وبالتأكيد أن هؤلاء لا يقومون بالخدمة الإنسانية ولكنهم ذئاب كاسرة فى صورة ملائكة ، وأعين خطيرة لوزارة المستعمرات الإيطالية ؛ واليمانيون يعرفون هذا ؛ والإمام يحيى يدرك أكثر من هذا . وإذا سألتهم : هل لهذا الليل من آخر ؟ أجابوك : « الإيمان يمان ؛ والحكمة يمانية ! » وحياتنا فى الوحدة « والوحدة عبادة ! »

ولا يفوتنا بعد هذا كله أن نشير إلى أن المؤلف كان فى مواضع كثيرة من كتابه هذا يشيد فى أسلوب استعمارى صارخ بما فى اليمن من ثروة طبيعية هائلة أهمها الذهب والفضة والنحاس والحديد والأحجار الكريمة والنفط والكوارتز والميكا وغير ذلك .

وخلاصة القول أن الفكرة الاستعمارية واضحة لا شية عليها ؛ وهى على أشدها فى ص ١٥٧ وما بعدها . فليحذر الإمام يحيى ، فإنه المسئول أمام الله والتاريخ عن مصير هذه البلاد .

هذه أسرار من (أسرار الحياة فى اليمن) وهناك أسرار مجتبتاذ كرها حرصاً على سمعة بلادنا ، وكرامة مواطنينا ، ولكن للأسف ستكون معلومة لدى الاستعمار ؛ بل هى الجسر الذى يتوصل به إلى تحقيق أغراضه ومطامعه ؛ ومن أنذر فقد أعذر .

« القاهرة » محمد فهم الله العمرى
دبلوم دار العلوم